الثعلب

للكاتب الايطالي المعاصر: اجنازيو سيلوني

ترجمة : ابراهيم فتحي

كان دانيل في حظيرة الخنازير يقدم علفه الى أنثى خنزير حاملا المخاض حينما سمع زوجته فيلومينا تناديه من داخل المنزل الذي يبعد قرابة ثلاثين ياردة . وحامل صوتها : « دانيل .. هناك من يريد التحدث اليك » ولكنه لم يسأ سماعها رغم انها كررته . فقد كان منهمكا في عمله كل الانهماك، فوق أنه أصدر أوامره بالا يزعجه أحد مهما تكن الاسباب . وفي النهاية حينما لم تتلق زوجته ردا كفت عن النداء .

وكان دانيل قد اتخذ كل دواعي الحيطة لكي يتم الميلاد في يسر بقدر ماتسمح الظروف ولكن مسألة الميلاد من المسائل التي لايقين فيها . فهو قد جعل أنثى الخنزير تتبع نظاما خاصا في الطعام منذ اليوم السابق ، كما أعطاها جرعة كبيرة من زيت الخروع معالاة في الحيطة ، ومع ذلك فقد كان يخشى أن يصبح الميلاد عسيرا ، ويصيب الضرر مؤخرة الأنثى فيؤدي ذلك الى نصوب اللبن . وكان قد استدعى أجوستينو لمساعدته ، واجوستينو وان يكن يعيش هنا في تسينو (سويسرا) منذ سنوات الا أنه قادم من برجامو (ايطاليا) فهو يحترف البناء ولكنه يستطيع القيام بأشد الأعمال عرامة حينما ينتهي موسم البناء .

وبعدات الولادة بداية مبشرة . فبين أيديهما خنازير ثلاثة صغيرة ضئيلة لانها الفتران، ولم يكن امام اجوستينو مايقوم به الا ان يجد اسما مناسبا لكل خنزير صغير ، ولكن الخنزير الرابع الصغير لم يرغب بعد في القدوم ، فاضطر اجوستينو أن يمسك بالأم من قمها بينما مد دانيل ذراعه لاخراجه لكي يفسح الطريق لما سيجيء .

وقال اجوستينو مشيرا الى الخنزير الصغير الذي لم يرغب في المجيء : سنسميه بينيتو (موسوليني) .

فأجابه دانيل مستحيل .. فقد ينضم الى متجر ايطالي

فرد أجوستينو أيها الحيوان الذي يحسب لكل شيء حسابا .

وفي تلك اللحظة ارتفع نداء لويزا صغرى بنات دانيل : بابا هنا من يريدك في الحديث اليك ■

وواصل دانيل رعايته للحناريز . لقد كان من الضروري تجنب كل احتمالات العدوى . وهو فوق ذلك كان قد افهم أسرته ، أنه حينما يعمل يستغرق في عمله ولا يحب أن يزعجه أحد لأي سبب من الاسباب . لذلك فلم يجب نداء لويزا أيضا . واستمر في مزاولة عمله ، فوضع الكائنات الصغيرة في عباءة داخل صندوق كبير مبطن بالقش ثم غطى الصندوق بغطاء من الصوف . اما أغوستينو فكان يزيل ما تخلف عن الولادة من آثار ، ويعيد الحظيرة الى نظامها الاول . ثم ارتفع صوت سيلفيا كبرى بنات دانيل صادية بابا ... هنا من يريد التحدث اليك ، وكانت تسير في الطريق متجهة الى الحظيرة .

ووصلت بعد لحظة تصحبها كاترينا الحائكة ، وهي عانس تقدمت بها الأعوام ترجمت من فلورنسة ، ولكنها كانت تعمل منذ سنوات طويلة في ميوسيو لكسب قوتها ، وكانت تكسبه في أكثر الاوقات ، لا بحياكة الثياب بل باعادة تفصيلها وباصلاحها . واعجب دانيل صائحا حينما وقعت عيناه على كاترينا هل تقصدين ان تقولي انكم ترغبون منذ ساعة كاملة في أجل هذه المرأة ؟

ولم يكن من المعروف عن كاترينا سرعة البديهة في التعبير عن نفسها .. ولم تأبه سيلفيا بلوم والدها واجابت كاترينا تريد أن تتحدث اليك .

واتجه أغوستينو وسيلفيا ناحية المنزل ، تاركين كاترين وحدها مع دانيل وبدأت كاترينا حديثها « أنت تعلم أنني امرأة لا أهتم بغير شؤوني الخاصة، فرد دانيل وسرات صوته لا تدعو الى التشجيع في الاسترسال « لا علاقة لي بشؤونك » . فاجابت « ولكنك تعرف انني لم اتدخل طول سنوات معيشتي في تسينو في شؤون أحد » . فرد دانيل وهو يستدير متجها الى المنزل « هذا الامر لا يعنيني » .

وبمجرد ان اتضح لكاترينا أن دانيل مصمم على ألا يصغي اليها قررت أن تتحول عن المقدمة وأن تدخل في الموضوع « جاء لزيارتي سيد ايطالي وطلب مني أن أصبح جاسوسة »

وتوقفت خطوات دانيل .

وأخذت كاترينا نفسا عميقا وبدأت تحدثه عن هذا السيد الايطالي الذي التقت به مصادفة ذات مرة في احد المكاتب في لوكارنو وعما قاله لها

« لقد قال لي انت تعيشين في تسينو منذ سنوات ، وأنت تعرفين كل الناس، وعملك يتطلب منك أن تذهبي الى كل مكان ، فانت تدخلين منات المنازل ، وتسمعين مئات المحادثات . وأنت امرأة عجوز وحيدة ولا يخشى أحد ان يقول اي شيء في حضورك . فاجبته بأن هذا صحيح ... الجميع يحترمونني لأني لا أهتم الا بشئوني الخاصة .. فواصل حديثه بنفس الطريقة ثم قال « اذا كنت مستعدة لكي تجمعي معلومات عن نشاط بعض الايطاليين المعادين للفاشية الذين يعيشون في تسينو بين اسكونا وبيلنزونا ، فانك تستطيعين أن تأملي في دخار شيء من المال لتشجعك » .

وكان دانيل قد استغرق الآن من ذهوله وظل يحدق في كاترينا متفحصا

وهي ترتجف وتنشج بالبكاء طوال حديثها قائلا : « لماذا تأتين الى بهذه القصة ؟ » . فتساءلت المرأة : « ماذا تقصد ؟ » فيجيب دانيل : « انا من تسيبو ولا تعنيني شئونكم الايطالية .. لماذا أتيت الى ؟ من أرسلك ؟ » .

فاجابت المرأة وهي تنشج : « ولكنك تعرفني منذ ثلاثين عاما ، وتعرف انني اكسب قوتي بطريقة محترمة ، وانت تعرف أنني لا اهتم الا بشئوني الخاصة » فقاطعها دانيل رافعا صوته : « ان ما اريد أن اعرفه هو من أرسلك الى ؟ » . فاجابت كاتربنا : « لم يرسلني أحد » ثم اضافت بهدوء : « أنا آسفة لازعاجك .. لن امكث اكثر من ذلك » .

واستدارت عازمة ظهرها ، وبدأت تسير متعمدة في الطريق المؤدي الى جوردولا وميوسيو ، وتبعها دانيل وواصل الحديث معها بعد لحظة : « اذا لم يكن قد أرسلك أحد ، فلماذا أتيت الى ؟ » . فقالت كاتربنا وهي تنظر الى الأمام مواصلة السير : « كنت ابحث عن النصيحة » . فسألها دانيل : « اي نوع من النصيحة ؟ » ، فاجابت المرأة بعد أن كفت عن السير : « هل افعل عرض السيد الايطالي أم ارفضه ؟ أنا لا اعرف ماذا يجب أن افعل . لم يسبق لي في حياتي كلها أن اصبت بهذا القلق والاضطراب .. فاذا وافقت الرجل كسبت مالا قليلا عن طريق الاساءة الى الذين لم يسيئوا الى أبدا . واذا رفضت فسيعتبرونني معادية للفاشية ، ويضطهدونني بكافة الطرق .. انت تعرفني منذ ثلاثين سنة وتعرف انني لست فاشية ولست معادية للفاشية .

وانت تعرف انني اكسب عيشي دائما بطريقة محترمة ، وانني لا اهتم الا بشئوني الخاصة » .

وظل دانيل غارقا في افكاره .. واصلت كاتربنا سيرها تاليا ، ودانيل يتبعها من جديد . وكان أجوستينو ينتظر في نهاية الطريق .

وقال دانيل للمرأة : « لا تخافي .. اخبري أجوستينو بما قلته الآن ، وافعلي ما يطلبه منك » . وظل دانيل يرمقهما وهما يسيران في اتجاه جورولا ، ثم عاد الى حظيرته ليرعى خنازيره ..

***

وذات يوم كان دانيل يعمل مع ابنته في احد حراش البلوط حينما ظهر اجوستينو ، ولم يكن دانيل قد رآه منذ مولد الخنازير الصغيرة . وكان دانيل قد اتخذ فرصة يوم من ايام الفراغ لانقاذ كرومه من أن تغمرها الآفات ، فكان يبحث عن مواضع الاصابة مستخدما فرشاة معينة ، وابنته تتبعه حاملة وعاء يملؤه الماء المعلى ، تصبه على مواضع الاصابة . وكان اجوستينو يقود عربة نقل تحمل طوبا ، فابطأ صانعا ، وهذا العمل يسير سيرا حسنا » . فاجاب دانيل دون أن يدرك مقصده على الفور : « اي عمل ؟ » . فقال اجوستينو وهو يلوح بيده مواصلا قيادة سيارته : « انت تعلم ما اعنيه » . فهز دانيل راسه وقال لابنته : « ان الايطاليين رائعون كرماء على سحنتهم شحمان ولكنهم يتكلمون كثيرا جدا » وعقب ابنته سيليا العرم على أن تقول شيئا قد رغبت في قوله منذ زمن طويل فقالت : « يا أبي ، انا اعلم انك تفعل الكثير من أجل حرية ايطاليا رغم أنك لا تتحدث عن ذلك .. وانني

أشتاق كثيرا لان اساعدك ، فحاولها الوالد ، واصبحي هذه الفروع ثم أشعل فيها النار . هذا هو كل ما يجب عليك أن تقومي به الآن » . وأطاعت سيلفيا، وتطلع دانيل اليها وهي تعمل من بين الكروم منحنية وهي تجمع الفروع في حرص وعناية صانعة منها كومات صغيرة .. لقد احتفلت بعيد ميلادها العشرين في نوفمبر ، وظل دانيل يتطلع اليها يملؤه الحسرة والخوف فقد كانت هي أنيس ما يملكه وفي نفس الوقت لايستطيع أن يكون على يقين من مصيرها .

***

لم يلتق دانيل بصديقه أوجستينو بعد ذلك الا صباح أحد ايام الآحاد بعد مرور فترة قصيرة ، وكان دانيل وفلوميا يتحدثان عن تعلب يشن غارات ليلية على حظائر الدجاج في كاديسارو وروماساكو ، وكانت المرأة تقول : لقد وجدوا ما يقرب من خمسين دجاجة مقطوعة الرقبة ، فعلق زوجها قائلا : اذا كان يقطع الرقاب ويمتص الدماء فلن يكون ثعلبا بل ابن عرس » ، وأقبل جماعة عربة من كاوسارو وسالوه الراعي، فأدلى بدلوه : انه ثعلب لا شك في ذلك، بل ربما كان هناك اكثر من ثعلب ، ففي احدى الحظائر لم يترك الا عددا من ريش الذيل ، فقالت فلوميا لزوجها : علينا أن نحرص على دجاجنا .. في العام الماضي كان المرض هو الذي اتى عليها.. ولم يكن ينقصنا من المصائب الا الثعلب» فقال دانيل : سنتصيد فجا لاصطياده» وفي تلك اللحظة اقبل أوجستينو فاصطحب دانيل جانبا وأخبره أن الامور تسير على ما يرام ، فقد عملت كاترينا بنصيحتي وفعلت ما أشرت عليها به ، وسيأتي الجاسوس لالتهام الطعم ...

يجب أن تكون في انتظاري فتسلل دانيل وعيناه تارب عواطفه ، ما هي فكرتك ؟ ، فأجاب أوجستينو : يجب أن نتصيد فجا ، ولم يستطع دانيل أن يمنع نفسه من الابتسام عند سماع كلمة « فج » فهي الكلمة الوحيدة في حديثه مع أوجستينو التي سمعتها فلوميا ، وسرعان ما وثبت عليها ، فقالت لأوجستينو : الفج لا يكفي ، فالثعلب ماكر ، وظل يدور حول المكان باحثا قبل أن يقرب الطعم ، وحتى بعد ذلك فهو لايلتقطه باستعجال فورا ، ولكنه يحاول أن يحدثه اليه باقدامه ، انها فكرة حسنة أن نتصيد فجا من الصلب ولكن لابد أيضا من أن ننثر حوله بعض الطعام السام ، ولم يفهم اوجستينو للوهلة الاولى ماذا تهدف اليه تلك القصة ، فالتفت دانيل الى زوجته قائلا : لا نستطيع التأكد من جدوى الطعام السام أيضا.. فمهما يكن الثعلب حاذقا فهو لن يأكل قطعا مبعثرة من اللحم ، وحتى اذا التقط قطعة من اللحم السام أو عورة مسامة فليس من المؤكد أن السم سيحدث اثرا ، فلا أحد يعرف الكمية المناسبة من الاستركنين لقتل ثعلب مجهول ، فاذا كان ثعلبنا قويا وكان الاستركنين مضعفا فلن يصاب الا بآلام عابرة في المعدة لا تمنعه من افتراس الدجاج ، أما اذا كان الاستركنين أقوى من اللازم فكل مايحدث هو أن يتقيأ الثعلب ويفرغ معدته ويزداد اشتهاؤه للدجاج ، وقال أوجستينو بعد أن أدرك آخر الامر على اى شيء يدور الحديث ، بصفة أخرى ، فمن المستحيل أن يضطاد الانسان ثعلبا ، فأجاب دانيل : انه ليس

مستحيلا ولكنه امر شديد الصعوبة ، ثم اضاف « ولم يحدث ابدا ان كان الكلام كافيا لاصطياد ثعلب » .

وعادت فيلومنا الى المنزل حيث كانت صغرى بناتها تناديها ، وذهب الرجلان الى البستان لمواصلة حديثهما . فقال أوجستينو « واخيرا وافقت كاترينا على ان تقوم بالعمل بعد زفرات وتنهدات كثيرة ، ولقد ذهب الجاسوس الايطالي لزيارتها مرة ثانية امس ، وترك لهـا عنوانا في « بالارو » لتستخدمه في الكتابة اليه حينما تتجمع لديها الانباء» وتساءل دانيل « الم يعطها اسماء ويطلب أن تتجسس عليها بشكل خاص» فاجاب أوجستينو « الظاهر ان ذلك لم يحدث حتى الآن ولكنه طلب منها ان تعرف أسماء العمال الايطاليين الذين يعبرون الحدود كل يوم ليتصلوا بأي من الذين تحيط الشكوك بافكارهم السياسية أو باللاجئين . وقد اخبرها ايضا انها ستحصل على مبلغ كبير من المال اذا استطاعت أن تساعده في اكتشاف أسماء الذين يهربون الكتب الثورية والمنشورات الى ايطاليا من سويسرا» وتساءل دانيل « الم يخبرها بأن شخصا معينا كان موضع ريبته ؟»

وأجاب أوجستينو « فيما يبدو لم يحدث ذلك حتى الآن » ثم اضاف « لقد وعد كاترينا بأنه سيبحث عن وسيلة تمكنها من الاستقرار في ريورج اذا ما حدث وارتبط اسمها بشيء يدينها الناس من أجله » لقد عاشت في سيينو منذ ثلاثين عاما وهي بطبيعة الحال تحلم دائما بأن تعاود الحياة في مدينة كبيرة» وتساءل دانيل « هل تعتقد كاترينا ان لي اية صلات بالايطاليين الثوريين ؟ » .

فاكد له أوجستينو أنها لا تعتقد « لقد ظلت في كل مرة اتحدث اليها تتنهد وتتساءل وتخبرني بأنها لا تهتم الا بشئونها الخاصة ، وأنها لن تفعل غير ذلك في المستقبل وان السينيور دانيل رجل مهذب خليق وقد تعطفت عليك بانك من أصدقاء أهل تسينو ، وانه لا علاقة لك بالسياسة ومن الممكن أن تثبت ذلك » .

وكانت سيلفيا ترقب والدها من حجرتها في الطابق الأعلى وهو يتحدث الى أوجستينو وتساءلت « هل أستطيع النزول » ؟ فقال الاب « تستطيعين بطبيعة الحال » . وجاءت الفتاة الى البستان وحينما اقتربت من الرجلين غيرا موضوع الحديث ، وتحدثا عن الطقس .

وكل مساء كان دانيل يتصيد تحت المصنوع من الصلب خارج حظيرة الدجاج ويثير قطع الطعام الساقطة ، ولكن الثعلب لم يظهر له أثر . وكذلك كانت الحال مع ثعلب أوجستينو فلم يكن متحمسا في أن تصطاده الشراك التي تنصب له وعلى أية حال فان دانيل لم يسمع شيئا عنه . وكان دانيل معتادا أن يقول ويعيد القول ، ان حياة رجل الريف هي حياة من الصراع المستمر ، صراع مع الطقس مع الموالح والآفات والطيور ، ولكن اسوأ انواع الصراع هو الصراع مع الثعلب » وبعد ان انتهت الحملة على آفات الكروم ، تفرغ دانيل لاستئصال آفات اشجار الفواكه ، فحقق عليها ما تنوء به من فروع دابلة ولحاء يابس ميت وطحالب كما كانت سيلفيا تقتل ديدان الاحشاب

التي كانت تستخرجها من الثقوب مستخدمة قطعة من السلك وحينما تتم تطهير كل سيقان الاشجار ، جاءت علومينا وطلتها باللون الابيض .

وقال دانيل لابنته : الآن قد قمنا بحماية الاشجار من التربة حتى الفروع ولكن كيف نحميها مما يهبط من اعلى من السماء ؟

وفجأة لمح أوستينو عند الساحل الامامي ، وهو يسارع سيلفيا متطرا قدوم الاب فتساءل دانيل : « ما هي آخر الاخبار ؟ » واجاب الرجل « لقد نصبنا الشرك » .

ـ والثعلب ؟ ـ سنصطاده الليلة ، وتنهد دانيل : « لو كان في استطاعتنا التأكد من اصطياد كل الثعالب ! » ومضى أوستينو يسهب في شرح الطريقة التي سيتم بها اصطياد الثعلب « أرسلت كاترينا تحذره أن لديها انباء هامة ورتبت أن تلتقي به في الساعة التاسعة من هذه الليلة في دريمابياناه بالقرب من البحيرة ، خارج الكنيسة القديمة ، وسأحافظ على الموعد وسيحافظ عليه معي اثنان آخران » وتساءل دانيل « الا تعتقد انه يحسن ابلاغ البوليس » فرد عليه الآخر « سيكون هذا تصرفا احمق .. فسيترامى الخبر الى القصبة الايطالية في الحال وسيفلت الثعلب » ولم يكن دانيل يعرف اجابة على هذا الاعتراض ، فمن المعروف أن هناك عناصر لا ثقة فيها بين صفوف البوليس . ولكن المخاوف كانت تساوره نتيجة للمضاعفات والاخطار التي ستحيق باللاجئين الايطاليين فقال « يجب أن يقوم رجال من أهل تسيرو بالعمل » ولكن أوستينو اعترض قائلا : « ان معنى ذلك اشراك عدد كبير .. ثم ان من الواجب اقامة فخ ايطالي للثعلب الايطالي » .

وفي هذا المساء سافر دانيل بالقطار الى لوكارنو ، وكان يسير متمهلا حوالي الساعة العاشرة الى جوار البحيرة في اتجاه سالينجي منتظرا أوستينو الذي سيقبل حاملا أخبار انجاز العملية وحوالي الساعة العاشرة والنصف أقبل « لوكا » وهو يجار من ميتوسو بدلا من أوستينو قائلا : لقد أصيبت به أوستينو بجرح طفيف ، فلم يأت حتى لا يجذب الأنظار الى سيارته . وكان دانيل شديد التلهف : وماذا عن أخبار الشخص الآخر ؟ .

« تركناه ملقى هناك . لقد جاء الى مكان اللقاء ومعه اثنان تركناه منفردا مع كاترينا بعد ان وعداه بالرجوع بعد ساعة ، فانتظرنا وراء الكنيسة حتى اختفيا في اتجاه «دافجناه» وفي تلك الأثناء بدأت كاترينا في الأنين والتنهد واختار الجاسوس الكثير من الهواء الفارغ .. وبين الأكذوبة والأكذوبة واصلت احاطته علما بأنها لم تتدخل ولن تتدخل في شئون أحد ، وأنها لا تعرف الا شيئا واحدا وهو أن الكتب والأوراق الثورية تهرب الى ايطاليا من دير الفرنسسكان، دير مادونا ديل ساسو في لوكارنو » ووقعت تلك العطفة الروائية البارعة دانيل الى أن يضحك من كل قلبه . وواصل لوكا : « ومضى أوستينو وحده اليه وتركنا وراء الكنيسة وكان من المقرر أنه لن يستخدم مسدسه الا اذا حاول الرجل أن يبدأ باستخدامه

واتجه أجوستينو اليه كما لو كان يعبر بمحض الصدفة ، ولما كان الظلام سائدا فقد اشعل سيجارة وتعرف عليه في ضوء عود الثقاب فنادى : « هذا وجه مألوف أنت جاسوس ايطالي » والقى بالسيجارة بعيدا وهدأت الحركة وعادت محيطا فاسرعت كاترينا بالفرار ، وسأل دانيل : « هل اشتركت في المعركة ؟ » فأجاب لوكا : « لم يكن ذلك ضروريا .. لقد وصلنا الراقصة لتتأكد من أن أحدا لم يأت » وسرعان ما تعلب أجوستينو على خصمه ، فقد طرح الرجل أرضا وظل ينهال بالكلمات على رأس الرجل بما يكفي لتحطيم صخرة . كنا نعرف مقدار قوة أجوستينو ولكن لم تكن لدينا فكرة عن كل هذه الكراهية التي تملأ قلبه ، فقال دانيل : « لا تنس أن الجاسوس قاوم أحيانا » ولكن كيف أصيبت يده ؟ » .

ـ لقد عضها الجاسوس . فقد أهوى بأسنانه على يد أجوستينو اليسرى وظل متشبثا بها ، فضرب أجوستينو يده الاخرى ضربات محمومة الى فك الجاسوس ولكنه ظل متشبثا بيد أجوستينو ، فقبض أجوستينو على عنقه وظل يخنقه . وسأل دانيل فرنا : هل قضى عليه ؟ ـ يبدو الأمر قريبا من ذلك ـ اذن يجب أن يختفي ربما كان الافضل أن يذهب الى فرنسا .

وقرر دانيل نتيجة لهذا التحول في الاحداث أن يقضي الليل في لوكارنو ثم يذهب في الصباح الى بلدروا ، ولكن يجب أسرته أن تتم فريسة للقلق ، تحدث اليهم مستخدما تليفون مقهى فردت سليفيا في الحال : « انه لحظ عظيم أن تتكلم .. منذ ساعة وأنا أبحث عنك في كل مكان ، وتساءل دانيل منذعرا ماذا حدث ؟ فأجابت سيلفيا : « لم يحدث لنا شيء . ولكن سيارتين اصطدمتا على مقربة من المنزل فمن الطريق الى جوردولا وأصيب رجل باصابات خطيرة .. وقال الطبيب ان اصابته من الخطورة بحيث لا يمكن نقله بعيدا ، فقام النادي بعض الاستفسارات واجمع الجميع على أن منزلنا هو المنزل الوحيد الذي يمكن أن يقيم فيه مؤقتا .. وقالت أمنا اننا لا نستطيع أن نستضيف في منزلنا رجلا غريبا وأنت بعيد ولكني اجبتها بأنك كنت ستوافق بكل تأكيد ، فقال دانيل : « بديعة الحال » ان يقيم الآن ؟ ، فأجابت سيلفيا في الطابق الاول في حجرتي .. وانا أنام الآن مع لويزا .

ـ هل حالته خطيرة ؟ ـ لم يقطع الطبيب رأي وسيرسل الليلة ممرضة ولكم أمي عرضت أن تقوم بكل شيء ـ من أين أصل هذا الرجل .. ما اسمه ؟ واوضحت امنته انه لا يزال غائبا عن الوعي . ولابد أن يتنحى الى أسرة عليه لان الطبيب اراد أن يقدم لأمي مقودا على الفور . ورد دانيل : « يؤسفني أني لن استطيع الحضور الى المنزل اليوم لمساعدتكم ، فانا مضطر للبقاء هذه الليلة في لوكارنو والى أن اذهب في الصباح المبكر الى بلدروا لانجاز عمل عاجل ولكنك تعلمين أمي أنني بكل ما يطلبه منه الطبيب .. فومي به هي طبيب خاطر » .

وخاطب دانيل أسرته في صباح اليوم التالي ليسأل عما اذا كان الجريح لا يزال على قيد الحياة فأجابته لويزا لان سيلفيا كانت قد ذهبت لشراء بعض الأشياء ، تحسن المسكين قليلا وجاءت ممرضة في

الليلة الماضية ولكن سيلفيا لم تنم الطبيب جاء منذ لحظة ، وأمسك الطبيب بالسماعة فقال له دانيل : يا دكتور كن حر التصرف في استخدام المثل .. يؤسفني أني لست معكم في مثل هذا الوقت ، ورد الطبيب : « أستطيع أن أقول ان الرجل سيشفى بكل تأكيد . لقد أصيب في رأسه اصابات بالغة الخطورة .. ولكن يمكن القول الآن انه لن تكون هناك مضاعفات .. ولابد من تعويضكم عن كل المصروفات التي تحملتموها . وسأل دانيل : ماذا عن الرجل ؟ أين يسكن أهله ؟ فقال الطبيب انه مهندس ايطالي من بولونا اسمه امبرتو سنتلا ربما تكون قد سمعت عنه لقد جاء الى سويسرا ليدرس توليد الطاقة الكهربية . فقال دانيل كائنا من كان الرجل ، فأنقذ ومثل في خدمتك ولم يضيع دانيل وقته فقد حاول في بليرونا على الفور ان يكتشف الى أي مدى وصلت تحريات البوليس بالنسبة الى محاولة القتل في ريمانيانا في الليلة الماضية ، وكان من الذكاء بحيث لم يبدأ هو الحديث في الموضوع بل كان ينتظر أن يبدأ الآخرون . ثم مضى لمقابلة محاميه واصطحبه الى المحكمة لتسوية بعض الامور الشكلية التي لاتتطلب أي اجراء ، وكان يتوقف في الشارع ويتحدث الى كل المعارف الذين قابلوه . واشترى جريدتين من جرائد الصباح ولكنهما لم يكتبا كلمة عن حادث الليلة الماضية . وكان من الواضح ان أحدا في بليرونا ، لايعرف شيئا عن الحادث .

واستجمع دانيل شجاعته في النهاية وفاتح محاميه في الموضوع : لقد سمعت عن حدوث مشاجرة سياسية بين الايطاليين في الليلة السابقة عند أطراف لوكارنو .

فأجاب المحامي : اذا كان ذلك قد حدث حقيقة ، فلا أحد يعرف عنه شيئا هنا ، ولا يمكن أن يكون حادثا خطيرا والا لكنا قد سمعنا به جميعا فالعلاقات بين الفاشست وأعدائهم متوترة هنا للغاية . وكان دانيل قلقا شديد القلق ، ولكن هذه الاجابة ردت اليه الطمأنينة ، فلا شك في أن جيال لوكا قد بالغ في تصوير الامر أكثر مبالغة . وقال دانيل لنفسه : ان هؤلاء الايطاليين رائعون كرماء على سجيتهم ولكنهم يتكلمون كثيرا . ووصل به تفكيره الى أن الامور لم تزدد سوءا ، والا كان على أجوستينو وكاترينا أن يغادرا سويسرا . ودفعه ذلك الى أن يشعر بالضيق لانه اضطر الى أن يقضي ليلة بعيدا عن بيته كما اضاع يوم عمل كامل بلا ضرورة . وفي القطار في طريق العودة كان بعض الفلاحين يناقشون موضوع الثعلب الذي يشن الغارات على الدجاج في ماجادينو .

فقال أحدهم : ان الثعالب شديدة الدهاء ، أكثر دهاء من الانسان بكل تحاكه وقال آخر : هناك نوع جديد من الفخاخ ، اختراع ايطالي . فرد الاول قائلا : انه يصنع صحة عظيمة ولكن لا جدوى منه . فقال دانيل : ان هذا صحيح .. انه يصنع صحة عظيمة دون جدوى .. انه لايصنع الا صحيحا هائلا .

***

صعد دانيل الى الطابق الاول بمجرد أن وصل الى البيت لكي يرى الجريح . وعلى باب الحجرة وجد سيلفيا تعترض الطريق واضعة اصبعها على شفتيها لكي

تحمله على الصمت ، وهمست في أذنه « يجب ألا يتعرض المريض لاى ازعاج .. يجب ألا يستقبل زوارا أو يتبادل اية أحاديث » فقد قال الاطباء يجب الا يستثيره اىشىء على الاطلاق» فقال دانيل جانب الامل » ، اذن فليس هنـــاك ماأستطيع القيام به » فهمست «تستطيع أن تخلع حذاءك قبل أن تهبـــط الدرج حتى لا تحدث أية ضجة » .

وخلع دانيل حذاءه وهبط ثم خرج الى حديقة المنزل، وبدا يعمل في مكان طليل خصصه للخضارة ، ومضى يقطع الاحشاب لتدعيم السور ، ولم يكد يبدأ حتىأقبلت سيلفيا تجرى وقـــد ارتدت حذين في قدميها » « هل حنست يا أبي في البيت رجل خطير الاصابة وانت تصنع كل هذه الضجة ؟ » فالقى دانيل بفأسه بعيدا وسأل ابنته عامسا » « على الاقل .. هل استطيع عرق الارض ؟ » فأومأت سيلفيا براسها موافقته ثم عادت الى الطـــابق الاول من جديد . أخذ دانيل أدواته وبدا يعمل في أحد جوانب البســـتان . ولم يمض زمن طويل حتى رأى ابنته الكبرى تغادر المنزل حاملة سلة فعـــاد فورا الى المنزل حاملا حذاءه ، وصـــعد الى أعلى فخرجت الممرضة من حجـــرة المريض ، وسمحت له بالدخول قائلة (لحظة واحدة فقط) ولم يستطع أن يرى في سرير سيلفيا الضيق الا راســـا ضخما معطى بالضمادات ، وعلى الرغم من أن ذلـــك المنظر لايبعد مادة للسخرية فلم يستطع دانيل أن يبعد عن ذهنه صورة رجـــل الحليد ، فلم تكن أمامه الا كرة بيضـــاء ضخمة ، بها ثقب صغير مـــكان العين ، وثقب آخر أكبر قليلا مكان الفم .

وقالت الممرضة وهي تشير الى طريق الخروج « هذا يكفي » وبينما دانيـــل يهبط متمهلا وحذاؤه في يده قابل سيلفيا التي كانت قد عادت لتوها ، فسألتـــه في لوم « اين كنت ؟ » ، فقـــال « هل تكلمين والدك بهذه الطريقة » ، ثم عاد الى عمله في البستان . وبينما هو مستغرق في عمله خرجت اليه زوجتـــه وبدات شكاتها قائلة « لقد فقدت سيلفيـــا عقلها ، فهي لم تمض عيونها ولم تاكل شيئا منذ الامس » فأجاب دانيل « انها تتبع عقلها الخاص » . ان لها قلبا نبيلا » فقالت الام (قلبها نبيل أكثر مما ينبغي) فرد الاب « (كيف يحدث لاى انســـان ان يكون قلبه نبيلا أكثر مما ينبغي ؟) » . وكان دانيل معجبا بابنته فظل يرقبهـــا يملؤه الاعجاب والخوف ، وكانت هنـــاك بعض الازهار نامية في ظل حدار البستان المخصص ، وجاءت سيلفيا وقطفـــت بعضهـــا لحجرة المريض . واعترضت ميلومنا في عدوء ، ولكنه لايستطيـــع رؤيتها ، فعينه تحجبها الضـــمادات ، فقالت سيلفيا « ولـــكن يامي انت تستطيعين رؤية الازهار حتى اذا كانت عيناك مغلقتين » .

وأنفق دانيل الجانب الاكبر من يومه يعمل في كرومه فوق التل، وحينما عاد في المساء سأل عن المريض فأخبرته سيلفيا أنه يتماثل سريعا للشفاء ، وان الممرضة تم الاستغناء عنها وأنها هي ستمرضه بنفسها، وذهب دانيل لراه مرة أو مرتين ولم تطل الزيارة عن لحظات قصـــيرة . وكان المريض يبدو رجلا مهذبا وديعا ، ورغم المشاغل الكثيرة التي تزدحم في رأس دانيل فلم يستطع أن يمنع نفسه عن ملاحظة ما طرأ على سيلفيا من تغير .

وقالت له زوجته ذات مســـاء وهي

تؤلمه ، يجب أن تقلل بعض الشيء من اهتمامك بالاشياء الاخرى وأن تزيد من اهتمامك باسكتك » . أجاب دانيل : « ان سيلفيا لم تعد طفلة وهي فقدت عاقلة ، فقدت عليه زوجته ! ، هي عاقلة ولكن لاخيرة لها بالحياة ، وكانت الام تحس بالقلق منذ زمن ولكنها عزمت على أن تلقى به بعيدا عن صدرها ، وجلس دانيل يفكر ويطيل التفكير ثم سأل زوجته بعد لحظات : « هل تعتقدين أنني يجب أن أتحدث اليها » ؟ فأجابت الام : « نعم ، قبل أن يفوت الاوان » .

وفي اليوم التالي كان على دانيل أن يأخذ كيسا من بذور البسلة الى صديق في (كوما) في (فال فيرراسكا) فاصطحب معه سيلفيا . ولم يكن هذا العمل الا ذريعة لما يريد فانهاه على وجه السرعة ورفض كل أنواع الحفاوة التي قدمت اليه ، وقال الاصدقاء الذين قابلوه : أنا أفضل أن أقطع المسافة ماشيا مع ابنتي ، فهي تبدو شاحبة في الايام الاخيرة ، وهي حاجة الى استنشاق من الهواء ، كما أن دهنها في حاجة الى مناقشة بعض المسائل .

وبدأ الاب والابنة السير في اتجاه جوردولا ، صامتين ، وكان الطريق يتعرج صاعدا أعلى النهر الذي يغطيه المزيد وهو يشق طريقه أسفل الوادي . وتساءلت سيلفيا : الا تستطيع السير بجوار النهر ؟ فأجابها دانيل لاأعتقد ؟ ولكنه كان يحب أن يقوم بما تريده ابنته فأضاف : نستطيع المحاولة ما دمنا نسير في عملية فوجدا ممرا متحدرا كأنه السلم ، يتعرج ويتلوى ثم يهبط الى جوار النهر ، والنهر يلقي بتياره الذي يعلوه الزبد على أسواره الصخرية . وعلى مسافة قريبة كان النهر قد كون بحيرة من الماء الهادىء الصافي بلغ من صفائه أنك تستطيع أن ترى كل حجر في قاعه ولم يكن الاب والابنة قد تبادلا الا عبارات قصيرة لامعنى لها ودفع ذلك الصمت دانيل أكثر مما دفعه أي شيء آخر الى أن يحقق من صحة التحول الذي طرأ على سيلفيا . وعلقت سيلفيا على ما حولها قائلة : يالها من أحجار جميلة ! مشيرة الى لسان رملي يمتد باتساع قدم تحت الماء . فأوضح لها الاب الامر قائلا : انه بيض السمك . ففي نهاية سبتمبر تترك الاسماك المناطق العليا من النهر وتسبح في اتجاه المصب ، وتبحث الاناث عن أماكن رملية لاتحيط بها الاحجار لتضع بيضها .. ففي تفسح بأذيالها مكانا بين الاحجار وتضع البيض الذي يلتصق بالصخور ، ـ أهذه هي طريقة توالد هذا النوع من الاسماك ؟

ـ ان الذكور لاتلقح البيض الا بعد ذلك . فالذكور تتبع آثار الاناث وتنثر سائلا لبنيا كثيفا فوق الاحجار التي يلتصق بها البيض ، وبعد القفس بعد أيام ، وظلت سيلفيا ترمق اللسان الرملي حيث تتحقق المعجزة والدهشة تملؤها وقالت : انه أمر رائع المساطة . ان الاسماك لاتذهب لتقد قرابها ، في الكنيسة يا أمي العزيزة . ولم يتبادلا في طريقهما الى المنزل الا تلك الكلمات .

وتساءلت زوجة دانيل هل تحدثت اليها ـ نعم ـ حسنا ؟ ـ لا شيء .

وذات يوم غادر المهندس الحجرة لاول مرة وتمدد في المستان فوق كرسي ، وكانت كاترينا ودانيل عائدين معا من جوردولا حينما كان المهندس ينادي سيلفيا ، وما

أن سمعت كاترينا صوته حتى جمدت في مكانها لا تأتي بحركة ، ثم مضت تتطرس خلال السياج الذي يفصل الحديقة عن الطريق ، ثم قالت وجسمها يرتعد كله : ياسيد دانيل .. ياسيد دانيل .. هذا الرجل هو الجاسوس الذي حدثتك عنه . فصاح دانيل : انت مجنونة واخبرها كيف حملوا الرجل الى منزله في غيابه . وعادت كاترينا من جديد الى السياج تتفحص الرجل المريض الذي كان يتحدث الى سيلفيا ويمازحها . ثم قالت : انه الرجل بكل تأكيد ـ انا واثقة قبل أن يراني » ، فقال دانيل ووجهه يعلوه الشحوب : « حسنا .. اخبري اجوستينو أن يأتي هنا .. وساعمل ما يجب حتى لا يراه الرجل » ، وبعد لحظات جاءت سيلفيا وتحدثت الى والدها ، ان مرضها تحسن كثيرا .. سيكون شيئا جميلا اذا ما تحدثت اليه في بعض الاحيان وسترى أي رجل رائع قدمت به المصادفة الى منزلنا .. فاجاب دانيل محاولا اخفاء مشاعره بكل تأكيد . يجب أن اتحدث اليه .. ستستطيع جميعا أن تتناول العشاء معا .

وأثناء العشاء كان الوضع متوترا ثقيلا ، فلم يكن دانيل يستطيع أن يتحمل رؤية هذا الرجل جالسا بين ابنتيه ، فاعتذر متعللا بصداع خفيف . وبعد دقائق خفوا به وجلسوا جميعا في البستان . وسأل المهندس الزائف مضيفه « ما هي اخبار الخرائد ؟ انني لم أر صحيفة منذ اسابيع » ، فاجاب دانيل ـ تحدث مأساة كل يوم تقريبا . فقد كان هناك حادث من حوادث القطارات في فرنسا بالامس .. ومات مئات من الناس » ، فقال (المهندس) ملتقطا كلمات دانيل : هناك مأساة كل يوم ولكن تلك الطريقة التي يسير بها الناس الى مصائرهم أسعد وقعا من ذلك . وتناجا مئات الناس الذين قتلوا في حادث الأمس . لقد كان هناك في بطن القطار ملاحة وفلاحون ومتسولون بحارة وضباط واطباء وباعة لوازم السيدات ومحامون . لقد كانوا في نفس القطار ومع ذلك لم يكونوا في نفس القطار فالفلاحون كانوا يفكرون في اسعار السوق والمحامون في الاوسمة والضباط في أن يجدوا لانفسهم زوجات غنيات ، وكان الاطباء يتشاجرون في الخيال مع عدم قراهم والطلبة يحلمون بأربطة عنقهم الجديدة أحلام يقظة ، فكل انسان كان يسافر في قطاره الخاص ... فهو المسائل الانسانية يسافر كل انسان في قطاره الخاص وفجأة يجد الجميع أنفسهم في قطار واحد ، قطار الموت . وتتقطع اربطة اعناق الطلبة تحت احدية الفلاحين ويحترق سيف الضابط صدر المتسول التجاري ، وتحتفي النماذج القديمة لبائع لوازم السيدات في الدخان واللهب لقد كانوا جميعا في نفس القطار دون أن يشعروا .

فقال دانيل ، ولكن سلطات السكة الحديدية اسرعت بتحطيم الوحدة التي حلقها الموت ، فقد وضعت الجثث التي تلبس معاطف من الفراء وحدها بعيد عن الجثث الاخرى . وسألت سيلفيا اذن فمحكوم على الناس أن يكونوا أعداء حتى بعد وفاتهم ؟ فاجاب المريض : هناك هوة بين طبيعة الانسان ، وبين مصيره وبين ما يصنع منه المجتمع . لقد تملكتني هذه الفكرة طول الوقت الذي كنت اصارع فيه الموت .. كل منا يسافر في

قطاره الخاص ومع ذلك فنحن جميعا في نفس القطار

فاجاب دانيل . ان مجتمع اليوم يقوم على انفصال الانسان عن الانسان وعن التناحر بين الانسان والانسان . ان الكثرة الساحقة من البشر محرومة من نتاج عملها فما تكاد تمار العمل تترك ايدي العاملين حتى لا تصبح ملكهم بل ملك أعدائهم ان ثمار العمل تصبح عدوا للعامل .. وتصبح الأشياء التي لاحياة فيها اوثانا يجب ان يركع امامها الانسان . وتساءلت سيلفيا : هل يجب أن نستمر الامور على هذا النحو ؟ وأجاب المريض : حينما كنت صبيا كنت أمل انا أيضا في نوع من المجتمع يختلف عن الذي نعيش فيه .

ونهض دانيـــل ومضى يعمل في البستان ، فالربيع يقترب وامامه عمل كثير فكان يقلع بالخاروف في الارض عاصبا ، ويحفر فوقه بقدمه اليسرى ضاغطا بكل قوته ، ثم يقلب بقطعة الارض الرطبة ، وتناثرت على وجه دانيل القلق العقد حبات كبيرة من العرق . وظل الجريح ممددا في الحديقة حتى ظهرت أوائل النجوم فوق ، مونت سنجري .

وقال في هدوء محاطبا العائلة التي تجلس حوله .. مضت سنوات كثيرة .. كثيرة منذ أن نظرت الى السمـــاء آخر مرة .. فدخلت سيلفيا الى المنزل وعادت ومعها كتاب قائلة : أنت تذكرني بالجندي الذي يصوره تولستوي في الجزء الأول من الحرب والسلام ، فالأمير اندريه كان قـــد جرح في نوفمبر عـام ١٨٠٥ في معركة بين الروس والفرنسيين وعندما مايقوله تولستوي عنه :

« ثم فتح عينيه مرة ثانية آملا أن يكتشف نتيجـــة الصراع بين جندي المدفعيـــة والرجلين الفرنســـيين ، وأن يعـــرف هل قتل جندي المدفعية أحمر الشعر أم لايزال حيا : وكان يريد أن يعرف أيضا هل استولى الاعداء على المدافع أم تم انقاذها — ولكنـــه لم يستطع أن يرى شـــيئا الا السماء العالية فـوق رأسه ، ولم تكن السمـــاء صافية الآن ولكنها كانت بعيدة عالية تطفو السحب الداكنة في رقة فوق صفحتها — وقال الامير أندريه لنفســـه : كم هـي وادعة هادئة رائعة .. وما أبعدها عن صراخنا وتدافعنا وقتالنا ولم يكن موكب السحب الوعور الذي يسير سماء لا حدود لها يمت باية صلة الى صراخ الجندي الفرنسي مع جنـــدي المدفعيـــة وقد ارتســـمت الاستهانة والتحقير على وجهيهما — كيف حدث أنني لم أتطلع من قبل الى السمـــاء .. وما أسعدني الآن بتطلعي اليها بعد كل ذلك .. فكل شيء خادع جاو لا حقيقة فيه ماعدا لا نهائية السماء .. فبعيدا عنها لا وجود لشيء .. ولـــيس السماء نفسها لا وجود لها .. فليس هناك الا السلام والسكينة .. وليقبل الله شكرنا على ما منحنا » . وكان القمر قد أشرق عامرا وادي ماجادينو بطوفان من نوره . وقالت لورا ان للقمر عينين وأنفا مثلنا ، فقالت سيلفيا لأختها الصغيرة تعلمها هذه خيال وبحور

فقال (المهندس) : اذا كان سكان

القمر يطيرون الى الارض فى تلك اللحظة ، فلاشك فى انها ستبدو لهم كما يبدو لنا القمر ، فكيف تبدو من الأرض الكبيرة اذا نظرنا اليها من تلك الأعالى ؟ ستتضح ايطاليا أشبه بالقصعة ـ وسويسرا أشبه بالنقطة ، علامات ترقيم لا أكثر . وتساءلت لويزا : « وكيف يبدو مونسولينى من كل هذا العلو ؟ وتساءلت دانيل أوكيف يبدو الصعيد موتا » . وضحك الجميع وفى اليوم التالى حينما رأى دانيل صديقه أوجوستينو قادما ، ذهب الى لقائه وقاده الى المنزل من الباب الذى يقع على جانب البستان ، حيث كان المهندس ممددا فى ضوء الشمس . وصعد الرجلان الى حجرة لويزا واختبأ أوجستينو وراء الستارة ونظر الى الجاسوس دون أن يتعرض لان يراه . وهمس أوجستينو أنه الرجل بعينه . ثم أضاف وهو يهز يديه : «على أقل تقدير لن يفلت منا هذه المرة» فقال دانيل : «أنت تمزح بكل تأكيد» . وكان صوت دانيل غريبا بحيث حمل أذنى أوجستينو لتتصنتا فقال : ان التعلب فى المصيدة ، فهل ستدعه يفلت منها .. لقد وقع فى يدنا آخر الامر واحد من الذين اغتالوا رفاقنا فى ايطاليا فى السجون ومشانق الجزر وذلك دون أن تمد يدنا للامساك به ، فهل تدعه يفلت ؟ » وكان رنين الغضب واضحا فى صوت أوجستينو ، فأجابه دانيل فى هدوء : انه فى بيتى .. شبيخى » . وقال أوجستينو : انه جاسوس فرد دانيل بنفس الهدوء : لقد كان جاسوسا ، ولكنه الآن ضيفى .. أنى الى بيتى متوسلا أن تأويه باعتباره رجلا يحتضر .. ولقد شفى وهو فى سريرى ـ ولم يستطع أوجستينو ان يصدق اذنيه فقال لماذا التردد ؟ أنت تعرف جيدا اية وسائل يجاريها الفاشيست . انهم لايعترفون باية قيم اخلاقيه . فقال دانيل : انا اعرف .. ولهذا السبب قلت فاشيا ـ لقد هزمنا لاننا نتمسك بالقيم الاخلاقية ـ ولكننا سننتصر بها .

وازاء هذا العناد لم يستطع أوجستينو الا ان يهز رأسه فى صمت ثم سأل كم من الوقت سيبقه هنا ـ ربما قضى اسبوعا آخر فهو لم يزل شديد الضعف ـ اذن فهناك من الوقت مايكفى للحديث عنه قبل أن يفلت .

وكان دانيل قد قرر الا يقول شيئا لعائلته مما دار من حديث ، فهو لم يكن يريد ان يجعل القلق يساورهم ، واخذ فى اعتباره ايضا الا يلاحظ ضيفه شيئا وكانت احدى أخوات زوجته قد وضعت لتعتنى بالمريض .

وقالت البنت الصغيرة للمهندس الزائف : أنت تقيم هنا منذ اسابيع ومع ذلك فانت لم تركل ماتى المنزل فأجاب حدث ذلك لانى كنت الارم الفراش دائما .

وطافت به لويزا كل الاماكن ، المخزن الذى يضعون فيه البطاطس والبصل والفواكه وادوات الفلاحة ، وحجرتها الخاصة التى تقتسمها الآن مع سيلفيا واسترعى التفات المهندس صورة ذات اطار تربعها زهرتان حمراوان من الورق .

— من هذا ؟

— مايتونى

وجلس المهندس على كرسى .

— ومن هو مايتونى ؟

— كان رجلا يقف الى جانب الفقراء لذلك قتله موسوليني .

— هل انت معادية للفاشية ؟

— بطبيعة الحال .

— وسيلفيا ايضا ؟

— انها تفوقنى فى ذلك .

— ووالدك ؟

— انه يفوقنا جميعا فى عدائه للفاشية ولكنه لايتكلم انه رجل عمل .

ثم أخذته لويزا الى الطابق الثانى :

— هذه حجرة أبى وأمى .

— وماذا عن هذه الحجرة التى هناك؟

— ليس مسموحا لاحد أن يدخلها .. انى يمنع دخولها . فيهـا الكثير من الاوراق ولايريد أن يعبث بها أحد.

وعادت لويزا مع المهندس الى الحديقة ، وامضى نصف ساعة يروع المكان ثم استقر على رأى . وذهب الى لويزا قائلا : هل تسمحين بأن تقومى بارسال برقية لى ؟ واعطى الفتاة الرسالة والنقود وقال انه سوف سيذهب الى فراشه فورا .

وفى اليوم التالى حملت سيلفيا ، أفكار المهندس ولكنها لم تتلق اجابة فالباب كان مغلقا ، فلابد ان شيئا قد حدث ، وبدأت سيلفيا فى الصياح واقبلت السائلة كلها لترى ماالخبر . وحطم دانيل الباب . وكانت الحجرة فارغة والسرير مرتبا لم يمسه أحد واختفت الحقائب ، وصاحت سيلفيا : لقد ذهب واصابت لويزا . لقد ذهب دون أن يقول وداعا ؛ وقالت فيلومينا مشيرة الى الفراش لابد انه رجل فى الليلة الماضية ، وقفز داخل نافذتين وصل الى الطابق الثانى حيث سمعته اسرته يصرخ غاضبا كأنه مجنون وفى هديره الغاضب كان يقول : اللص .. الوغد .. الخائن .. لقد اخذ كل أوراقى .

واندفع الجميع الى الطابق الاعلى ، وكان كل شىء معثرا . ومحتويات الادراج ملقاه على الارض .

وفى هذه اللحظة اقبل أوستينو ، ولم يكن يعرف شيئا عما حدث ولكنه كان شاحبا مضطربا . وقال دانيل : لقد مر الجاسوس فى الليلة الماضية ، أخذا معه كل أوراقى ، وبينها تلك الأوراق عن حركة عبور الحدود ، يجب ان نحذر الرجال الذين سيعبرون فورا ، ليس أمامنا دقيقة نفقدها .

فقال اجوستينو : قبض على ثلاثين عاملا في محطة لوتتو ، في الصباح الباكر وكانوا حينما قادمين الى ميلانو ليعملوا اثناء النهار ثم يعودوا الى ايطاليا وحملقت سيلفيا في والدها اجوستينو ، في ذهول وحيرة كما لو كانت ترى مشهدا تمثيليا .

وبدات تصرخ باكية : لا .. لا .. ليس هذا صحيحا . ان الأمر مزاح .. قل يا اجوستينو . استحلفك بالله ان الامر ليس صحيحا .

واستجمع دانيل نفسه قائلا : يجب ان نفكر فورا في انقاذ الذين لم يقبض

عليهم بعد . ثم خرج الرجلان مهرولين ولم يعد دانيل الا في ساعة متأخرة من الليـــل .. وكانت فلومينـــا ولوريا جالستين بجوار الموقد ، وسيلفيا جالسة فوق صندوق في نهاية المطبخ المظلم . وقال دانيل وهو واقف بجوار المطبخ ان مهربينا قد قبض عليهم في الصباح الباكر ، وهاجم البوليس مستودعا للكتب عند الطاحونة ، وفتش البوليس منزل كاتريا ، ويبدو ان أخوستينو قد قبض عليه وسيطرد من سنوسيرا . ألم يأت البوليس هنا بعد ؟ فقالت فيلومينا لا . وجلس دانيل عند عتبة الباب . وهبط الليل وظهرت النجوم . وصاح الديك أول مرة ولكن أحدا لم يفكر في الذهاب الى الفراش ، ولم يكن أحد راغبا في أن يذهب الى الطابق الاول الذي ظل يشغله المهندس ، حتى البارحة . وصاح الديك مرة ثانية . وظلت فيلومينا ولوريا جالستين بجوار الموقد ، وسيلفيا جالسة فوق صندوق في نهاية المطبخ المظلم ، ظل دانيـــل جالســـا عند العتبـــة ، وكانوا جميعا يشيهون ساهرين حول ميت مسجى في فراشه . وصاح الديك مرة ثالثة .

ومزق الصمت صرخة حيوان حادة ، تشبه نباح كلب يقاسي آلاما مبرحة تلتها صيحات الدجاجات جميعا . وقفز دانيل واندفع هابطا الى الحديقة متجها الى حظيرة الدجاج . فرأى ثعلبـــا قد امسك الديك باحد مخالبه ، وكان الثعلب مقوس الظهر يحاول استخدام ارجله الثلاث الطليقة في تحرير الساق المقيدة ، وحينما رأى دانيل مقبلا بدأ يقفز في حنـــون من جانب الى آخر غير عابىء بالسلسلة التي تمسك بالديك . وصاح دانيـــل « أحيرا » وامسك بفاس ملقاة بجوار حظيرة الدجاج وبدأ يهوي بها على الثعلب كما لو كان يقطع شجرة بلوط ، فانقض على رأس الثعلب وظهره وبطنه وسيقانه وواصل ضرباته حتى بعد أن تمزقت الجثة وتحولت الى كتلة دامية .